المحاضرة العاشرة: ألفية ابن مالك

وُلِد محمد بن عبد الله بن مالك الطائي سنة (600هـ = 1203م)،في مدينة جيّان وكانت الأندلس تمرُّ بفترة من أحرج فترات تاريخها؛ حيث تساقطت قواعدها وحواضرها في أيدي القشتاليين النصارى. ولا يُعرف كثير عن حياته الأولى التي عاشها في الأندلس قبل أن يهاجر مع مَن هاجر إلى المشرق الإسلامي بعد سقوط المدن الأندلسية، ولا شك أنه حفظ القرآن الكريم، وتعلم مبادئ القراءة والكتابة قبل أن يتردد على حلقات العلم في بلده، ويحفظ لنا "المقري" في كتابه المعروف "نفح الطيب" بعض أسماء شيوخ ابن مالك الذين تلقى العلم على أيديهم، فذكر أنه أخذ العربية والقراءات على ثابت بن خيار، وأحمد بن نوار، وهما من شيوخ العلم وأئمته في الأندلس.

وقد هيأت له ثقافته الواسعة ونبوغه في العربية والقراءات أن يتصدر حلقات العلم في حلب، وأن تُشَدّ إليه الرِّحال، ويلتف حوله طلاب العلم، بعد أن صار إمامًا في القراءات وعِلَلها، متبحِّرًا في علوم العربية، متمكنًا من النحو والصرف لا يباريه فيهما أحد، حافظًا لأشعار العرب التي يُستشهد بها في اللغة والنحو.

لقد كان لابن مالك دور كبير في تيسير النحو وتقريبه للمتعلمين، حتى أصبحت كتبه مرجعًا لمن أراد أن يتعلم النحو، ولعل أبرز مظاهر التيسير النحوي عند ابن مالك ما يلي:

تنظيم موضوعات النحو وتسهيلها للمتعلمين: فتجربة ابن مالك الطويلة في تعليم النحو وتدريسه، جعلته يفهم وظيفته والهدف منه؛ إذ كان المقصود من ذلك تقويم الألسنة وصرفها عن الخطأ، ولا شك في أن تحقيق ذلك يتم إذا خلت قواعده من التعقيد والتكلف والابتعاد عن الافتراض والتقدير.

فابن مالك يختار الرأي الأسهل البعيد عن التكلف، ولقد نص على ذلك في مواضع مختلفة من كتبه، فمن ذلك قوله عند الحديث عن إعراب الأسماء الستة – وبعد أن ذكر جميع الأقوال – قال: "ومنهم من

جعل إعرابها بحروف المد على سبيل النيابة عن الحركات، وهذا أسهل المذاهب وأبعدها عن التكلف."

وعند الحديث عن (السين) و(سوف) يقول: "والقول بأن (السين) فرع (سوف) لا يفضي إلى مثل ذلك، فوجب قبوله والتمسك به؛ لأنه أبعد عن التكلف"[1].

فهو عند ذكر أقوال النحاة يختار الأسهل والأبعد عن التكلف، ويجعل ذلك سببًا من أسباب اختياراته[2].

وينص بعض معاصري ابن مالك بأن مؤلفاته البعيدة المسائلِ الكثيرةِ الفوائدِ، استطاعت أن تبين المعالم الطامسة، وتحقق ما لم يكن تبين منه ولا تحقَّق[3]، فعندما ألَّف ابن مالك ألفيته راعى فيها وضع المبتدئين الذين لا يستطيعون فهم النحو كما جاء به النحاة القدامى إلا بعد جهد جهيد ومشقة كبيرة؛ إذ يسهل على الطلبة حفظها واسترجاعها، وتعد تيسيرًا على الطلاب والناشئة في بدايات حياتهم التعليمية[4].

ومن العوامل التي ساعدت ابن مالك ليكون نحوه سهلًا وواضحًا: تنظيمه لموضوعات البحث وحسنُ تقسيمه لها، وهذا يظهر في معظم مؤلفات ابن مالك التي تعتبر مثلًا أعلى يحتذى به في فن التأليف، فقد كان ابن مالك يتبع منهجية منظمة اعتمدت على المناسبة وارتباط اللاحق بالسابق.

والظاهر أن اشتغال ابن مالك بالتدريس أكسبه خير الطرق؛ لتكون مؤلفاته نافعة، فاستنبط المعضلات وجمع المتفرقات وشرح الغامض من المسائل، وأحسن النظم والترتيب[5].

---

[1] الأندلسي ابن مالك؛ شرح التسهيل، ج1، ص 25

[2] علي بن علوي الشهري؛ أسباب ترجيحات ابن مالك النحوية في شرح التسهيل، جامعة أم القرى، مكة السعودية1435هـ، ص 7

[3] صالح بلعيد؛ ألفية ابن مالك في الميزان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،1995، ص 12

[4] حفيظة يحياوي؛ إسهامات نحاة المغرب والأندلس في تأصيل الدرس النحوي العربي خلال القرنين السادس والسابع الهجريين، منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، 2011، ص 131

[5] غنيم غانم؛ ابن مالك اللغوي، مذكرة ماجستير، جامعة الملك عبدالعزيز مكة، السعودية،1979، ص 145

فابن مالك يضع منهجًا محددًا للكتاب يجعل مقدمته توضح فكرته، ثم يأخذ في أبواب وفصول متتالية يتحدث عنها، جامعًا النظير إلى نظيره، وهو يفعل هذا ليقرب إلى الأفهام ما بعد من المسائل، وهو حين يكتب لا يكتب لنفسه، وإنما يكتب لنشر العلم وإحيائه وتقريبه للمتعلمين.

فهو يعتمد على التدرج في التأليف، فـ(الألفية) تلخيص لكتبه السابقة بنظرة أوفى، (وتسهيل الفوائد وتكميل المقاصد) في التفصيلات، ثم تأليف ما يُعد اختصارًا لما سبق أن ألفه في كتابه (عمدة الحافظ وعدة اللافظ)[1].

وإلى جانب حسن التبويب والتدرج في التأليف – وتسهيلًا لمتعلمي النحو – فإن ابن مالك يحدد الموضوع الذي يتناوله في مؤلفاته، فعلى الرغم من تفاوت مؤلفات ابن مالك بين الطول والقصر، فإنه لا يكاد يوجد بين مؤلفاته كتابٌ ولا رسالةٌ لم يبدأ بتحديد موضوع بحثه وتعيين خطته في الدراسة، وبيان الهدف الذي قُصد من وراء تأليفه؛ يقول ابن مالك في كتابه إكمال الإعلام بتثليث الكلام: "رأيتُ أن أبذل جهد المستطيع في نظم كتاب يحيط بما لا يُطمع في المزيد عليه ... فاقتصرتُ على ذكر الكلمة مصرحًا بشرحها، مفتتحًا مردفًا بكسرها ثم بضمها، فلْتُعلم الحركات وإن لم أسمها ومحل الحركات الواقع بها التثليث في الكلمة، وقد يكون ثانيها أو ثالثها أو أولها وثالثها، ولكون التثليث في الأول غالبًا أستغني عن التنبيه عليه، بخلاف غيره، فلا بد من تعيين التَّثْلِيث منه"[2].

ومن مظاهر التنظيم عند ابن مالك أيضًا أنه إذا ذكر شيئًا قبل موضعه أو في غير بابه أجل بيانه إلى الموضع الخاص به، فعند الكلام عن وقوع الضمير بعد "إلا" مثلًا قال: **"وهذا متعلق بالاستثناء، فأخرت**

---

[1] صالح بلعيد؛ ألفية ابن مالك في الميزان، ص58

[2] الأندلسي ابن مالك؛ إكمال الإعلام بتثليث الكلام؛ تحقيق سعد الغامدي، ط1 مكتبة المدني، جدة السعودية، 1984، ج1، ص 4

استفاء الكلام فيه إلى بابه حتى نأتيه إن شاء الله تعالى"[1]، وعند الكلام على الصلة إذا كانت ظرفًا أو جارًّا أو مجرورًا يقول: **"وتقدير الفعل هنا مجمعٌ عليه بخلاف تقديره في غير صلة، ففيه خلاف يُذكر في باب المبتدأ إن شاء الله تعالى"**[2]، لقد كان ابن مالك عالِمًا بمختلف علوم اللغة والنحو، ولا يستطيع أحد مجاراته في هذا المجال، فقد تميَّز بنظم ألفيته التي سماها "الخلاصة"، والتي جمع فيها قواعد النحو والصرف، فكانت بمثابة المؤلف الذي ألم بمختلف جوانب هذا العلم؛ حيث حاول ابن مالك أن يأتي بمنهج جديد يسهل النحو، ويجعله في المسلك الذي وُجد من أجله.

وهذا ليس غريبًا على ابن مالك الذي دأب على النظر في كتبه بعد تأليفها وقراءتها عليه، فيغير فيها ويصلح؛ مما جعل كتبه أكثر وضوحًا ودقة، وكان الدافع وراء هذه الإصلاحات هو شعور ابن مالك أن هناك قصورًا يجب تفاديه ونقصًا يجب إكماله[3].

وإذا كان ابن مالك قد قضى حياته بين التدريس والتأليف، فلا عجب أن يوجه اهتمامه إلى وضع كتب في موضوعات بعينها، فيؤلف في (الظاء) و(الضاد) و(المقصور) و(المهموز) و(الأفعال الثلاثية)، و(فيما يهمز ولا يهمز) [4].

وكان حين يتناول موضوعًا من الموضوعات، يتناوله بدقة وسهولة ويستقصيه استقصاءً كاملًا مع دعمه بما يحتاج إليه من دليل وشاهد، ومما يكشف عن إحاطته بالموضوع الذي يتناوله قوله مثلًا: **"وأول من عُنِيَ**

---

[1] الأندلسي ابن مالك؛ شرح التسهيل، ج 1، ص 152

[2] المرجع نفسه، ج1، ص 211

[3] عبدالعزيز العويني سيرة ألفية ابن مالك تأليفًا وإبرازًا وتحقيقًا، مجلة الدرعية، السنة الثانية عشرة، العدد46 جمادى الآخرة، 1430، ص 146

[4] غنيم غانم الدراسات اللغوية عند ابن مالك بين فقه اللغة وعلم اللغة، ص167

بهذا الفن – يعني فن المثلثات – محمد بن المستنير (قطرب)، ولكنه لم يتأتَّ له منه إلا قدر يسير ... وقد عُنِيَ بعد ذلك جماعة من الفضلاء وأكابر الأدباء أحقهم بالإحصاء، وأوثقهم بالاستقصاء أبو محمد بن السيد البطليوسي، فإنه صنف فيه كتابًا أنبأ عن غزارة فضله، وكاد يعجز الإتيان بمثله"[1].

وكان مما تميز به أيضا ابن مالك أنه لا يكتفي برأيه في الموضوع، بل يذكر الآراء المختلفة، ويرجح ما يراه مناسبًا، فعند الحديث عن إعراب الأسماء الستة يقول: "في إعراب هذه الأسماء خلاف: فمن النحويين من زعم أن إعرابها مع الإضافة كإعرابها مجردة، وأن حروف المد بعد الحركات ناشئة عن إشباع الحركات، والحركات قبلها هي الإعراب، ومنهم من يجعل إعرابها بالحركات والحروف معًا، ومنهم من زعم أن الحركات التي قبل حروف المد منقولة منها، فسلمت (الواو) في الرفع لوجود التجانس، وانقلبت في غيره بمقتضى الإعلال.... ومنهم من جعل إعرابها بحروف المد على سبيل النيابة عن الحركات، وهذا أسهل المذاهب وأبعدها عن التكلف"[2].

وإلى جانب ذكر الآراء المختلفة، فابن مالك يذكر في بعض الأحيان اللغات المختلفة، ومن ذلك قوله: "في الفم تسع لغات، فتح (الفاء)، وكسرها وضمها مع تخفيف (الميم) والنقص، وفتحها وضمها مع تشديد (الميم)، وفتحها وكسرها وضمها مع التخفيف والقصر"[3].

وليعطي الموضوع حقه، ويحيط به من كل الجوانب، فإن ابن مالك إذا رأى بعض الكلمات تحتاج إلى شرح، فإنه يقوم بشرحها، وهذا من تمام إحاطته بالموضوع، فعند الحديث عن (الحَم) مثلًا يقول: "والحَمُ

---

[1] الأندلسي ابن مالك إكمال الأعلام في تثليث الكلام، ج1، ص 04

[2] نفسه، ج 1، ص43

[3] نفسه، ج1، ص 47

هو زوج المرأة وغيره من أقاربه، هذا هو المشهور، وقد يطلق على أقارب الزوجة"[1].

ولا شك أن الاستعانة بنظم القواعد النحوية والصرفية، يسهل حفظها وضبطَ إعراب الكلمات، وتصويرَ حركاتها، والألفيات لها شأن عظيم في هذا المجال، ولكنَّ تحقُّقَ ذلك لن يتم إلا بأن يتوفر[2] للقاعدة النحوية عنصر البساطة، وأن يتوفر للمنظومة عنصر الوضوح.

وإن هذا النظم نوع خاص، فليس شعرًا كي تظهر فيه الزينة، وليس نثرًا عاديًّا تتوالي فيه الكلمات، بل هو نوع من النظم يجمع بين المعنى الهادف والكلام الذي يحتاج الوعاء الخاص للتبليغ، فإذا تصفحنا الألفية – على سبيل المثال – نجد أن المعنى دائمًا هو المراعى، وأن الوزن في بعض المواضع تطغى عليه الجوازات[3].

ومن مظاهر التيسير النحوي عند ابن مالك التي كان لها أثر فعَّال في تقريب النحو، وجعله سهلًا: حذف ما لا يدخل في صميم النحو من الزيادات، والاكتفاء بالمهم وتجريده من المسائل المتعلقة بعلوم أخرى، فمن ذلك قول ابن مالك في شرح الكافية الشافية مثلًا: "حروف الإبدال المبوب عليها في كتب التصريف، هي الحروف التي تبدل من غيرها لغير إدغام، وهي التي لا بد من ذكرها، وهي هذه التسعة ..... وما سواها مما ذكره الزمخشري وغيره مستغنى عنه؛ ك(اللام)، و(النون)، و(الجيم)، و(السين) إلى أن قال: وهذا النوع من الإبدال جدير بأن يُذكر في كتب اللغة لا كتب التصريف، وإلا لزم ذكر (العين)؛ لأن إبدالها من الهمزة المتحركة مطرد في لغة بني تميم، ويسمى ذلك عنعنة، وإنما يعنى في الإبدال التصريفي بما لو لم يبدل وقع في الخطأ أو مخالفة الكثير...[4]

---

[1] نفسه، ج1، ص 44

[2] ممدوح عبدالرحمن؛ دراسة في منظومة الألفية، ص48

[3] صالح بلعيد؛ ألفية ابن مالك في الميزان، ص58

[4] –ابن مالك شرح الكافية الشافية، تحقيق عبدالمنعم هريدي، دار المأمون للتراث، مكة السعودية، ج،4 ص2070

هذا ويعتمد ابن مالك على الإيجاز لتقريب النحو إلى المتعلمين وتسهيله، فلا ريب أن ابن مالك نظر في منظومته الكافية الشافية، فوجدها مفرطة في الطول، فضلًا عما اشتملت عليه أبياتها من شواهد وأمثلة كثيرة، مع بسط الأحكام والقواعد النحوية، وهذا ما نص عليه في مقدمتها حيث يقول:

فمعظم الفن بها مضبوط * والقول في أبوابها مبسوط**

فاختصرها مكتفيًا بالأحكام والقواعد النحوية المهمة في ألفيته التي تُعد اختصارًا للكافية الشافية [1]؛ يقول ابن مالك في نهاية الألفية:

تقرب الأقصى بلفظ موجز * وتبسط البذل بوعد منجز**

حيث جاءت الألفية رائقة صافية، فتلقاها الناس بالقبول، وكأنه انزاح عنهم عبء ثقيل ألا وهو الكافية[2]، يقول ابنه بدر الدين عند شرحه للبيت السابق: **"إن هذه الألفية مع أنها حاوية المقصد الأعظم من علم النحو؛ لما فيها من المزية على نظائرها أنها تقرب إلى الأفهام المعاني البعيدة بسبب وجازة اللفظ، وإصابة المعنى وتنقيح العبارة، وتبسط البذل؛ أي: توسع العطايا لما تمنحه من الفوائد لقرائها، واعدة بحصول مآربهم، وناجزة بوفائها".[3]**

و صفوة القول:

إن النحو العربي وعلى الرغم من مكانته العالية وأهدافه السامية، أصبح اليوم يعيش واقعًا أليمًا، فهو بين متشدد جعل النحو هدفًا يصعُب الوصول إليه، وبين متساهل زهد في تعليم النحو، وقلَّل من شأنه، وبين

---

[1] عبدالله علي محمد؛ ألفية ابن مالك تحليل ونقد، مذكرة ماجستير، جامعة أم القرى، السعودية،1989، ص 28

[2] عبدالله علي محمد؛ ألفية ابن مالك تحليل ونقد، ص43

[3] ابن الناظم بدر الدين محمد؛ شرح ألفية ابن مالك، منشورات تناصر، بيروت لبنان، ج1، ص3

هذا وذاك يتعين على القائمين عليه والمنشغلين به تبني منهج ابن مالك في الواقع العملي والاستفادة منه، فهذا حري أن يعيد للنحو العربي مجده الضائع، ويساعد على تعلم اللغة العربية التي أصبحت غريبة في أوطانها بين أبنائها النّاطقين بها...